قَلِيلٌ مِمَا حَدَثْ

مقدمة

بدأت رحلتك مع اللجوء من قبل وجودك وتكونك بهذا الشكل, بدأت منذ كنت نطفة تصارع فى حرب ضروس مع آلاف ملايين الحيوانات المنوية لتنتصر بإعلانك اللجوء فى تلك البويضة التى احتضنتك وتترك بقية أعدائك للهلاك, كم كنت غبيا حين سمحت لك أول فرصة للانتحار فى تلك الحرب, ببساطة كنت ستقف جانبا وتهلك مثل الملايين من أخوتك, وتترك ذلك المنتصر الوهمى الذى هو أنت حاليا يعيش فى كذبة الانتصار كانت لتنتهى حياتك قبل أن تبدأ، ولكن أن أردت القتال، وكنت بطلا منذ ذلك الوقت فلماذا الآن تريد أن تستسلم و أنت من ولد بطلا؟!

-1-

دمشق 2011/2/17

الشرطة حرامية, حرامية, الشرطة حرامية, الشعب السورى ما بينذل, الشعب السورى ما بينذل.

سوق الحريقة وسط دمشق تجمع لألف شخص أو ألفين, أول تجمع منذ أربعين عاما يهتفون فى الشارع: الشرطة حرامية، أول تجمع يصرخ فى تاريخ سوريا الحديث.

هذا لا يعقل, هذا لا يصدق, كل من رأى هذا الموقف تجمد فى مكانه، وفكر أين هو، و ماذا يحدث فجأة؟! نحن بقينا صامتين أربعين عاما دون أن ننبس بكلمة أو نحرك ساكنا، واليوم نهتف: الشرطة حرامية, دماغى لم يحتمل

هذا، اندسست بين الجموع لأفهم ما يجرى, التجمع بسبب شرطى ضرب ابن أحد التجار لأنه خالف فروض الطاعة ولم يعطه الذى فيه النصيب رشوة, ولكن هذا الحدث الطبيعى والاعتيادى جدا فى سوريا الأسد سبب ردة فعل غير متوقعة أبدا؛ حيث يعتبر التجمهر بحد ذاته مخالفا لمبادئ وتقاليد الدولة، مخالفا لكل الأفكار المرتبطة بالدولة.

فجأة سيارة سوداء مع بعض المرافقين, يخرج من السيارة رجل يستند إلى بابها, لم يعرفه إلا قليل من الناس لأنه فى سوريا الأسد لا داعى لمعرفة من يشارك فى الحكم، سوف تسرق بغض النظر عمن يساهم فى الحكم، ولم يكن أحد يهتم بالسياسة، إنه وزير الداخلية أتى ليناقش متجمهرين خرقوا أكبر قواعد مزرعة الأسد، وكسروا الصمت المطبق منذ أربعة عقود من الزمن.

الوزير: هى اسمها مظاهرة عيب.

(مضحك هذا الواقع و أليم عندما يعتبر التجمع لأناس مكبوتة عيبا)

المتجمهرون: لا لا لا لا يلا يا شباب بدنا نرفع صوتنا قدام سيارة الوزير: بالروح بالدم نفديك يا بشار، كانت هذه الجملة قمة النفاق لأن الجميع يعلم بأن أى خروج لأى شخص عن هذه الجملة التى تعد دستور البلاد و أساسه سينتهى بشكل غامض لايمكن تخيله أو توقعه.

تفرق الحشد مذهولا، كل واحد منا يسأل نفسه: أين كنت؟! ماذا فعلت؟! ماذا حدث؟!

هل حقا سمعت صوتي؟!هل حقا كلمنا وزير ووعدنا بحل مشاكلنا؟! بالنسبة لى لا أعلم ماذا حدث، ولكن كل ما أعلمه أن الزمن توقف لعدة دقائق غيرت كل أفكارنا، وسوف تصبح حدثا فارقا.

البداية

لم يبق أحد فى الشرق ولا فى الغرب إلا سمع باسم محمد البوعزيزى الشاب الذى أضرم النار فى نفسه تنديدا لاعتداء شرطية عليه ومصادرة باب رزقه الوحيد عربة خضار كل ما فيها لا يتجاوز ثمنه 100$.

أقام فى المشفى لمدة أسبوعين إن كنت أذكر المدة، ثم يأتى خبر وفاته كالصاعقة على الشعب التونسى، حيث أصبح البوعزيز رمزا وشعلة. أضرموا كل الساحات والطرقات احتجاجات، وصارت قضية رأى عام, ثورة واعتصامات, هرب الرئيس التونسى, العدوى تنتقل بسرعة بين العرب دوما, ثورة فى مصر أيضا تنحى الرئيس, اليمن تشعل ثورة, ليبيا أيضا, مرض وتفشى ربما.

لكن سوريا فى ظل القيادة الحكيمة التى يلتف الشعب حولها كانت بعيدة كل البعد عن هذه العدوى؛ حيث قيادة تعتنى بشعبها وشعب حاضن لقيادته, هذا ما يبدو للعلن, أما فى كينونة كل شخص، و فى عمق أفكاره هناك فكرة دوما تقول لا وتعترض وتصرخ بأعلى صوتها لكن دون أن تنبس بهمسة واحدة تسمع؛ لأن الحيطان لها أذان كانت متقوقعة داخل رأس كل إنسان؛ لأن كل واحد منا يمشى الحيط الحيط وبقول يا رب السترة، و ربما لأن ذاكرة هذا الشعب لم يُمحَ منها بعد صورة مجزرة حماة منذ حوالى ثلاثين عاما, ومجزرة سجن تدمر التى لربما نصف هذا الشعب لا يعرف قصتها.

إلى ذلك اليوم الذى خرجت فيه مظاهرة سوق الحريقة، وتجمع أهل سوق الحريقة ليصرخوا بأن الشرطة حرامية، دق ناقوس الخطر فى عقل النظام الذى لم يكن غبيا أبدا، بل كان يستخدم ذكاءه ويظهر نفسه بصورة الأبله المتغابى.

بعد أن ظهر وزير الداخلية ووعد المتظاهرين من خلال كلامه وتهديداته المبطنة بأنه سيحل المشكلة, انفضت الجموع لأنهم يعلمون حق العلم أنهم لو

استمروا فى مظاهرتهم لن يصلوا لبيوتهم، ولن يناموا على أسرتهم مرة أخرى, لأنهم يعرفون دموية النظام، دون أن يروها؛ لأنها تتجسد فى كل أبنية النظام ومقرات الأفرع الأمنية التى يتجاوز عددها عدد أبنية المدراس فى تلك الدولة.

داخل كل منا شرارة تنتظر من يوقدها.

تاريخ 2011/3/9 عاطف نجيب أحد أكبر مسؤوليى النظام الأمنيين فى مدينة درعا يفرج عن أطفال تم اعتقالهم لأنهم كتبوا على جدران مدرستهم عبارات ليست ذات معنى بالنسبة لهم, ربما سمعوها من الأخبار التلفزيونية أو الأخبار التى أصبح أهلهم يتناقلونها عما يسمى بالربيع العربى.

تم خلع أظافر الأطفال وتكسير أسنانهم وحرق أجسادهم بأعقاب السجائر، بهذه الأساليب كان النظام دوما يضع بصمته الهمجية على أجساد شعبه.

اعترض أهالى درعا على هذه التصرفات الوحشية، وقدموا شكاوى عديدة، فما كان من عاطف نجيب إلا أن يقوم بسب نسائهم واعتبارهم أولاد زنا.

بدأت دعوات للتظاهر فى تاريخ 2011/3/15 وسمى بيوم الغضب, نزلت إلى سوق الحميدية حيث مكان التجمع، كنا أكثر من المرة السابقة بكثير امتلأ سوق الحميدية عن بكرة أبيه, كل الذين شاركوا فى ذلك اليوم لم يحملوا معهم غضبا من أجل درعا فقط, بل مزيجا من الغضب والكره والبغض المكتوم تجاه نظام محترف فى القمع وإكمام الأفواه, لم يكن غضب ذلك اليوم وليد اللحظة أيضا، بل كان غضبا موروثا منذ أربعين عاما أو أكثر.

اجتمعت الأصوات، كما الناس، على جملة بالروح بالدم نفديكى يا درعا، هنا انكسرت كل قيود الطاعة، و رحل الخوف الذى يتملكنى, لأننى خرجت من دائرة الوفاء للقائد لأن الروح والدم كانوا له وحده، كما علمونا أن نقول ونفعل.

زادت أعداد المتظاهرين و ازدادت جرأتنا معهم، شعرنا نحن حوالى ال 5000 شخص بأننا قوة لا تستطيع أعتى الجيش أن يقهرنا, كنا فى أوج قوتنا، وأول كلمة صرخت بها الجموع عند الشعور بهذه القوة المبهمة هى حرية، نصفنا غلبته دموعه عند النطق حرية، أنا طالب جامعى فى العشرين من عمرى، لم أكن أعرف معنى هذه الكلمة حتى نطقت بها بأعلى صوتى, كدت أمزق حنجرتى ربما، ولكننى تحررت فى قرارة نفسى، و فى عقلى الباطن تملكتنى فكرة واحدة، الحرية.

إِكْمَالْ الطَرِيقْ

فى اليوم التالى ليوم الغضب إعلانات تملأ الفيس بوك الموقع المحظور أساسا فى سوريا والذى يشكل تصفحه تهمة تأخدك وراء الشمس, إعلان عن جمعة الكرامة بتاريخ 2011/3/18والانطلاق من مسجد بنى أمية الكبير الجامع الأموى، أعظم صرح دينى فى سوريا والمنبر الإسلامى الأول للنظام, كان هذا تحديا صريحا للنظام فى عقر داره الديني.

قررت الذهاب إلى هناك, ماذا سيحدث يا إلهى؟!

كان يوم الجمعة ذاك يحاول أن يبدو طبيعيا وهادئا, قوات الأمن منتشرة متأهبة فى كل الشوارع الرئيسية, وعلى بوابة المسجد.

ندخل المسجد خطبة طويلة مطولة عن عدم جواز الخروج على ولى الأمر، وتحريم التظاهر، وضرورة الابتعاد عن الفتنة، وإطفاء نارها, هنا

أرعبتنى فكرة الرسائل الخفية التى يرسلها النظام على ألسنة رجاله, فيظهر تحريم التظاهر وتحريم الخروج على الولى، وهنا سيقع العقاب على من يخرج ضده.

انتهت الخطبة أقاموا الصلاة، ، انتهت الصلاة، ، صرخ أحدهم: قد أفلح من وحد الله، نادى المصلون خلفه لا إله إلا الله، ارتفعت هتافات أخرى مثل: حرية و الله سوريا حرية، وهنا فقط، بهذه الجمل تعتبر قلعة النظام المحصنة قد قذفت بحجر، وهذا الحجر هز أعمدتها كلها.

خارج أبواب المسجد كانت قوات الأمن متأهبة للناس الذين ينادون حرية, وأنا أسأل نفسى: يا إلهى ماذا يحدث ؟

أطلق الأمن الرصاص، سقط شخصان على الأرض، صرخ المتظاهرون: شهيد, شهيد! هل حقا قتلوهم؟! هل هذا حقيقى؟! تتسارع نبضات قلبك بسرعة كبيرة, وتفكر بوتيرة أسرع، يا إلهى ماذا يحدث ؟

لقد أنهى الأمن حياته لأنه نادى حرية، الأمن يأخذ تعليماته من القيادة الحكيمة، والقيادة الحكيمة أعطت الأمر للأمن أن يطلقوا النار, إذن الأمن قاتل بالوكالة، وهذا يعنى أن قاتل يحكمنا، يا إلهى ماذا يحدث، ، ؟

ساعة أو أكثر انفضت الجموع حملوا الجرحى إلى المشافى الحكومية والخاصة، وأغلب الجرحى الذين دخلوا لم يحرجوا أحياء أو لم يعودوا إلى أهلهم أبدا.

جن جنون قوات الأمن، اعتقالات من الشوارع، دوريات على مدار الساعة, استشهد شخصان يومها, و قد كررت سؤالى فى سرى، ما يزيد عن مئة مرة: يا إلهى ماذا يحدث؟!

اليوم التالى اجتمع الناس ليشيعوا الشهداء، التشييع تحول إلى مظاهرة تندد بالاستبداد وتندد بقوات الأمن و أفعالها، قوات الأمن تطلق النار يسقط شهيد جديد، حتى أصبح المشهد المعتاد مظاهرة وقوع شهداء تشيع الشهداء يتحول لمظاهرة ويسقط شهداء جدد، و أصبح أمرا مكررا واعتياديا ربما،

بالنسبة لى أصبح الموضوع هدفا و أسلوب حياة، أبحث عن التظاهرات التى ستخرج يوم الجمعة، أذهب لأشارك فى إحداها, أقوم بالتصوير قليلا لو استطعت فعل ذلك، أرفع ما صورت إلى موقع الفيس بوك، المنصة الوحيدة المتاحة لإظهار ما يجرى فى حقيقته حينها, تطورت مخاطرتى لأصور مقاطع الفيديو لقوات الأمن وهى تطلق النار, كل جمعة يزداد الحماس، المتظاهرون يصبحون أكثر تنظيما, الكلمات تحولت إلى شعارات، ومن ثم إلى أغانى ثورية, لدينا علم يمثلنا أيضا, حصلنا على وقت قصير جدا بأدوات بدائية تكاد تكون من العصر الحجرى للإعلام للقيام ببث مباشر لبعض التظاهرات, كل هذا وقوات الأمن تزداد همجيا وعنفا, والنظام يتخبط يواجه الكلمة بالحديد والنار, والشهداء فى ازدياد.

إعلام النظام لا يعترف بوجودنا أصلا، ونحن غير سوريين، وما هذه المظاهرات إلا فبركات إعلامية ومشاهد تمثيلية نفذت بإتقان لتبدو بأنها فى سوريا من قبل دول ومنظمات أجنبية تستهدف سوريا الأبية قلب العروبة النابض.

اجتمعنا بعض الشباب وبجهودنا الذاتية قمنا بتشكيل ما أسميناه تنسيقيات الثورة لكى نقوم بتنظيم المتظاهرين وخروجهم و أوقات التظاهر والشعارات والأعلام والطرق التى ستمر من خلالها المظاهرة.

أصبحنا مطلوبين لقوات الأمن بسبب مهمتنا المقتصرة على إيصال الصوت والصورة والرواية الحقيقة لما يحدث فى مكان أقصى حريتك فيه أن

تختار وجبة غدائك, عدد أيام التظاهر يزداد، لم يعد يقتصر على يوم الجمعة ولكن بقيت لكل جمعة اسم، اسم حكاية طويلة.

الجمعة الواحدة والثلاثون من الثورة و اسمها جمعة أحرار الجيش بتاريخ 14/تشرين الأول /2011 وكانت لدفع الشرفاء من جيش الأسد للانشقاق عنه، والانضمام إلى صفوف الثورة للدفاع عنها وإيقاف ما يحصل من قتل للأبرياء.

خرجت كما كل جمعة أحمل هاتفى النقال ومعى كاميرا رقمية ديجتال رديئة جدا، ولكن كافية لإيصال دقيقة مما يحصل لهذا للعالم, أثناء خروجى من المنزل أصبحت أتحاشى الطرقات الرئيسية لأنها تعج بالأمن وحواجز الجيش النظام، وقد يتم اعتقالى مباشرة بدون توجيه أى تهمة, فكنت ألجأ إلى الأزقة الضيقة والحارات الفرعية لأصل إلى وجهتى, و أنا أسير فى طريق فرعى يرانى تجمع لقوات الأمن يشير إلىَّ أحدهم وينادينى للقدوم, تظاهرت بعدم سماعه و حاولت العودة أدراجى, تبعنى أحدهم فقمت بالركض للهرب منه, يطلق النار فيصيبنى وأسقط على الأرض.

أصابنى فى قدمى أشعر بدم دافئ يسيل منها, يسرعون نحوى يضربوننى بأيديهم و أرجلهم بحربات البنادق فى كل أنحاء جسمى, يضربون قدمى المصابة, مع سيل من الشتائم الدنيئة.

تأتى سيارة نحونا يرفعنى أحدهم والباقى يستمر فى ضربى يأخذ أحدهم الكاميرا ويكسرها على رأسى أفقد وعيى جزئيا, أشعر بهم يضعون كيسا أسود فى رأسى، يرمونني فى طبون السيارة يغلقونه علىَّ, شعرت أن العالم انتهى, يا إلهى ماذا يحدث ؟؟؟

تسير السيارة مسرعة جدا وأنا أتخبط داخلها أسمع صوت الدواليب وهى تسطك ب

على الأرض, أشعر بقدمى المصابة, حوالى ربع ساعة إن كان إحساسى بالزمن صحيحا, تتوقف السيارة شعرت حينها بأن الأرض توقفت عن الدوران, أصوات غير مفهومة يفتح الطبون ومن ثم ضربة غيرمتوقعة بشئ غليظ جدا ربما عصا خشبية أو قطعة حديد, لكننى سمعت صوت عظامى تتكسر.

يخلعون الكيس عن رأسى مع سيل جديد من الشتائم الممنهجة, أفتح عيونى أحاول معرفة أين أنا, لتفاجأنى ضربة جديدة عيونك: بالأرض يا حيوان)

رأيت قدمى المصابة, بحسب خبرتى الضئيلة التى اكتسبتها فى المشافى الميدانية, الرصاصة دخلت فى اللحم وخرجت دون أن تكسر العظم أو تصيبه لأننى أستطيع الوقوف عليها بصعوبة, خارت قواى ووقعت على الأرض و آخر ما شعرت به حذاء أحدهم يشق جدار معدتى.

استعدت وعيى عندما قاموا بتفتيشى لإدخالى إلى المعتقل, خلعوا كل ملابسى, كان تفتيشا دقيقا جدا لكل ثنايا الجسم حتى فتحة الشرج, تفتيش لا يمت للكرامة الإنسانية أو المشاعر البشرية بصلة, أعادو إلى بنطالى وكنزتى فقط, يعيدون عصب عينى, دون توقف عن الضرب أو الشتائم, ننزل أدراج و نمشى فى ممرات كل ما أسمعه أصوات أنين و تنكيل, أصوات يقشعر لها بدنك وتشعر بأن كل الألم اجتمع فى إنسان واحد ليخرج هذه الصرخة,

أتعثر بسبب قدمى المصابة يقومون بزيادة وتيرة الضرب و إجبارى على المشى, نصل إلى مكان ما, نتوقف قليلا, يفك وثاق عينى ومن ثم يدفعنى إلى الداخل و يقول رقمك 64 يا ابن، ،

إغلاق قوى للباب يبدو من الصوت إنه مصفح.

أحاول فهم ما جرى وما يجرى, فتحت عيونى بصعوبة بالغة لا يوجد أى ضوء, كل مافى الغرفة المربعة شباك صغير مجنزر بقوة على ارتفاع ثلاثة أمتار ربما،

و أشباح، ، كلا ليسوا أشباح إنهم بشر عليهم هيئة الأشباح.

هذا ما رأيته وأغمى علىَّ، ،

صحوت على صوت أحدهم يقول 64 لك قوم هلأ بفوتو بخلصوا عليك 64 قوم، وجاءتنى فكرة خلال ثانية واحدة، هل ألغى وجودى وسحب اسمى من كل السجلات؟! هل نسينى الجميع و أصبحت مجرد رقم؟! ربما سيأتى غيرى و يأخذه أيضا، هل تحولت لمجرد رقما؟!

زحفت للباب ليقول السجان:

- انت 64 يا أخو ال، ، ليش ما عم ترد عامل فيا غميان وما حسنان تقوم هلأ منشوف.

يسحبنى للخارج يغلق عينى, ويجعلنى أمشى، وفى حال تعثرت أنهال على اثنان أو ثلاثة بالضرب حتى أعاود المشى, وصلنا إلى غرفة علمت فيما بعد إنها غرفة التحقيق بسبب الاحترام الذى أبداه العناصر للشخص الجالس فى الغرفة,

السجان: سيدى جبنا الإرهابي.

راودتنى فكرة أخرى سريعة إرهابى ماذا فعلت لآخذ هذا اللقب؟!

المحقق: حطوا لهل حيوان هون لشوف.

وضعونى على الكرسى لا أرى شيئا أمامى, أسمع صوته فقط, أسمعهم يسجلون التاريخ ما زلنا يوم الجمعة, أسمعهم يسجلون اسمى من بطاقتى الشخصية، انتابتنى فرحة مفاجئة لوجودى شعرت بكيانى ما زلت موجودا و لست رقما فقط.

الضرب هنا أثناء التحقيق لا يتوقف أيضا هناك أشخاص يعملون هنا من أجل الضرب فقط وإذلال النفس البشرية وإهانتها, لا أعتقد أن هذا عمل لإنسان قويم وسليم النفسية, تشعر مع كل ألم بأنه ينقل بؤس العالم من يده إلى جسدك.

المحقق: شو عملت يا أخو ال، ، ؟!

أنا لم أفكر فى إجابة فأنا لم أفعل شيئا, كل ما كنت أفكر فيه تقرح قدمى المصابة.

أجبته: ما عملت شي.

المحقق: بلشت كذب و أكل، كل واحد منكم بقول ما عامل شى مين يلى عم يتظاهر لكن, اعترف لأن كل يلى عاملو عنا.

أجبته: ما بعرف عن شو عم تحكى.

المحقق: أنا رح خليك تعرف بطريقتى معناها, خدوه ع التشريفة.

تعجبت من كلمته، ولكنى تيقنت بعد كلمته بأقل من دقيقة من خلال صعقة بعصا كهربائية بأن التشريفة تعنى طريقة استقبال للمعتقلين، وهى شديدة الوحشية، ومن يخرج منها حيا يكتب له عمر آخر.

لا أعلم كم بقيت من الوقت فى التشريفة, ولا أعلم ما هى أدوات وطرق التعذيب التى جعلتنى أصرخ حتى بح صوتى أو هو الآخر اختفى, استيقظت فى النهاية على أرضية الغرفة التى استدعونى منها, كنت حليق الرأس، وأشعر بالأوجاع فى كل جسمى، لدرجة أن قدمى المصابة أصبحت أقل أوجاعى, ثيابى ممزقة أيضا, لا أعلم إن كان تمزق شئ آخر فى جسمى.

دققت حولى فى وجوه الآخرين فى الغرفة، إنهم نصف أشباح, حليقو الرأس ضامرو البنية، تشعر بأنهم من العصر الحجرى، يعيشون فى كهف عميق فى باطن الأرض, أدركت أن شكلى أصبح مثلهم، وتحول لونى إلى الأصفر مثلهم، وغارت عيناى للداخل مثلهم, لم أدرك طريقة التغير هذه كيف تمت بسرعة وتحولت إلى شخص آخر ربما خلال 20 ساعة أو أقل لكننى أدركت أننى مثلهم.

اجتمعوا حولى عندما رأونى أستعيد وعيى, رفعوا رأسى قليلا, رأيت الغرفة مكتظة جدا، إنها تكفى لعشرة رجال فقط فى الوضع الطبيعى لكن هنا يوجد أكثر من 50 لأن رقمى هو 64.

لم أستطع أن أتحدث معهم، و لم أستطع أن أسمعهم أيضا، لا أعلم ربما فقدت جميع حواسى، لكن ما أعلمه جيدا أن فكرى متقد ويعمل بطريقة خرافية, يبحث عن إجابة لنفس السؤال الذى لم أجد له إجابة: يا إلهى ماذا يحدث، ؟

كنت قد سمعت من أصدقاء لى سبق أن تم اعتقالهم طرق التعذيب والتلذذ فى الإجرام والسادية المفرطة، لكن لم أتخيل يوما أن الدور سيأتى لأشعر بما شعروا به فى هذا المكان الخارج عن قوانين الكرة الأرضية حيث لا يوجد وقت فيه ولا توجد حياة.

نأكل كل يوم وجبة واحدة مكونة من ربع رغيف خبز ونصف بيضة متعفنة على الأغلب وفى بعض الأحيان تصبح مدللا وسعيدا بحصولك على ملعقتين من البرغل.

تخيل أن تضمحل سعادتك إلى القدر الذى يصبح فيه أثر ملعقتى البرغل فى نفسك كأنك أنهيت صفقة تجارية رابحة أو تخرجت من الجامعة وربما من الجوع الشديد سعادتها توازى سعادة حصولك على مولودك الأول.

فى هذا اللامكان الخالى من أى شى ذى صلة بالحياة الإنسانية, والمفرغ من أى شعور إلا شعور الألم, كنا ننام بالدور لأنه لا يوجد متسع للجميع أنا وبسبب إصابة قدمى كان زملائى فى الغرفة يعاملوننى أفضل قليلا حيث كان بعضهم يفضلنى على نفسه فى لقمتى طعام أو طريقة النوم.

كلنا مجرد أرقام بالنسبة لهم, مفرغون من أى اسم أو لقب أو تحصيل علمى أو أى شى قد فعلناه خارجا.

كنا نتكلم همسا لدرجة أننا نحن لم نسمع بعضنا فى كثير من المرات؛ لأن الكلام ممنوع, تبادلنا سرا معلوماتنا الشخصية ومكان سكننا و كيفية الوصول إلى أحد أفراد العائلة, حتى إذا خرج أحد منا ليعلم الخارج بأننا موجودون فى مكان ما.

تصعق حين ترى أن أغلب المعتقلين فى سن الشباب بين 20-35 سنة، وأغلبهم قد أتموا مراحل تعليمية عالية تجدهم أطباء واختصاصيى حاسوب ورجال قانون وموظفى حكومة أيضا، لا مانع من اعتقال هؤلاء أيضا.

وأغلبهم أيضا ضحايا تقارير أمنية من مندوبى فروع الأمن المخبرين الذين يمكن أن يكون جارك أو بائع الخضار فى شارعك وربما البقال أو أحد أقربائك, ويكفى أن تعبر عن أى رأى ضد النظام أو حتى كلمة واحدة أمامه

كفيلة بأن توصلك إلى هذا المكان, لأنه يقوم ببيعك مقابل مبلغ ضئيل جدا من المال لهم.

توالت الأيام لم أعد أعرفها ولا التواريخ، عددت يومين فقط، ومن ثم ضعت فى دوامة الوقت, لأنهم يتحكمون فى ميعاد نومنا ويقظتنا, فربما نحن ننام النهار ونستيقظ ليلا، وربما العكس، وربما لا أعلم, حتى شباك التهوية أصبح مغطى فلا ترى إن كانت الشمس مشرقة أم لا.

وكانت طريقة معرفة الوقت الوحيدة عندما يتم استدعاء أحدنا للتحقيق، ويقوم المحقق بتسجيل التاريخ والوقت، وهذا نادرا ما يحدث, أو فى حال اعتقال شخص جديد وإدخاله إلينا فيخبرنا بأن اليوم هو كذا والتاريخ كذا، وبعد يومين، على الأكثر، يضيع معنا فى متاهة الوقت ذاتها.

كل يومين أو ربما ثلاثة كنا نتبدل، يستعيدون أفرادا من المهجع يتم اقتيادهم، ولا يعودون أبدا، هل أخذوا ليعرضوا على المحاكم, هل أخلى سبيلهم وخرجوا ببساطة, أم قتلوا.

ويأتى أشخاص جدد تم اعتقالهم من الشارع أو من منازلهم أو مقرات عملهم، يخبروننا بأن التظاهرات لا تزال تخرج، وبأن الناس لن يستسلموا, يبثون لديك قليلا من روح الحماسة فى هذا المكان المنسى الذى لا يتسع كغرفة نوم لشخصين تزوجا حديثا ونحن هنا سبعون شخصا.

نفس السؤال لا يغادر ذهنى: يا إلهى ماذا يحدث، ؟

كل يومين أو ثلاثة أيضا يستدعوننى للتحقيق حتى أصبح روتينيا جدا أو أسلوب حياتى الذى أتعايش معه, حتى جروحى أصبحت تشفى كما جروح الباقين وعذابهم ربما اعتدنا الأمر وأيقنا أن هذا هو مصيرنا.

أحاول دوما توثيق ما يحصل معى فى دماغى ولكن حيطان الذاكرة لا تتسع لكل هذا, ما يصبح أكثر إيلاما لك من الضرب والإهانة، وما يأكلك من الداخل هى ذكرياتك السعيدة تصبح عدوك القاتل حين تتذكر أى شئ جميل حصل معك فى الخارج، تشعر بأن ألف صعقة كهرباء وألف ضربة بالكبل الرباعى قد اجتاحوا ذاكرتك وأصبحوا كالمحقق فى شراسته وقسوته.

نعتنا وصفاتنا تتغير بشكل دائم من إرهابى إلى إسلامى متشدد، ناهيك عن الشتائم ابن، ، أخو، ومع جميع أسماء وصفات الحيوان.

أما سجلاتنا هنا فكلها تكون بحسب الأرقام مسجلة بحذافيرها فى سجلات الفرع الذى نقيم فيه الاسم والكنية واللقب والعمر والعمل وأسماء الأهل من الجد الأول إلى الحفيد الأخير, عائلة أمك وأبيك وأخوتك، أولادهم أولاد أولادهم داخل البلاد أم خارجها.

النِدَاءْ الأَخِيرْ

السجان: 64 يا حيوان 64.

انا: أكلم نفسى تحقيق كمان.

السجان: وينو64؟!

تقدمت نحو الباب بثقل كما العادة، إنه وقت التحقيق لنفس الأسئلة، وأنا لدى نفس الأجوبة، حيث لاجديد فيها, لكن ما يكسر روتين التحقيق وتكرار الأسئلة هو تغير طرق التعذيب لا أكثر, ومحاولتك البقاء على قيد الحياة بكل ما أوتيت من قوة لتحافظ على رقمك الذى يثبت ارتباطك بالوجود، ويثبت أنك كائن حى على الأقل.

يفتح الباب، يسحبنى كما العادة أيضا بنهر وعصا غليظة مع تعتيم على الأعين, كل مرة يستدعوننى للتحقيق أشعر أنها النهاية, أشعر بأنهم سيجهزون علىَّ أثناء التحقيق, أصبحت الغرفة المعتمة المكتظة عن آخرها مكان الأمان بالنسبة لى على الأقل، لا يوجد ضرب داخلها ومكان استراحة بعد جولة طويلة من الألم.

إلى المحقق أيضا كما العادة.

السجان: سيدى جبتلك الحيوان اللى طلبتو.

المخقق: قعدوا وطلاع لبرا.

وضعنى على الكرسى كما العادة، رفع الغطاء عن عينىَّ وذهب, دوما لا ترى، المحقق يبقى شخصا مبهما ربما لأنه يعتبر منصبا جيدا فى أفرع المخابرات، أو ربما لأنه يخشى على نفسه من انتقام أحدنا بصفته الذى يملك إبقاءنا على قيد الحياة أو قتلنا وحتى قرار إخراجنا من هنا بيده.

و أنا مطأطئ رأسى نحو الأسفل على طاولة التحقيق رأيت محفظتى وبطاقتى الشخصية تعجبت من الأمر ودخلنى الرعب, قلت إنها النهاية سوف ينهون حياتى ويسلمون لأهلى بطاقتى، وينشر بيان بأننى إرهابى وتوفيت دون أن يعلم مكان دفنى.

مجرد الفكرة تجعل أطرافك ترتعش.

المحقق: هلا رح تاخد أغراضك البطاقة والمحفظة ورح يجى عنصر يطالعك ع الباب ويعطيك كف بحث ورقة لوقف بحث قوات الأمن عنى وتروح عبيتك.

انا لم أصدق ما اسمع، تعترينى رغبة فى البكاء، وربما بالاندهاش لن تتخيل أفكار وقتها انه يمزح بالطبع كلامه غير صحيح لأننى موقن بأن موضوع خروجى مستحيل من هنا.

لا أستطيع أيضا أن أسأله إن كان صادقا فيما يقول أو إنه كاذب, لا أستطيع سوى أن أنتظر دقائق لأرى حقيقة الأمر.

المحقق: يا ولد للعنصر خارجا خدوا ختمولو وطلعوا لبرا ما طلع عليه شى

العنصر: حاضر سيدى.

أعاد إغماض عينىَّ وأخرجنى أننا نمشى فى ممر حقا وأنا غير مصدق بهذه البساطة أنى سأخرج, لا ربما تقرر إعدامى وهم يقولون لى هذا لمنعى من الصراخ والممانعة, يعود السؤال إلى ذهنى يا إلهى ماذا يحدث، ؟

كلما اقتربنا من المكان الذى يأخذنى إلى أشتم رائحة هواء أنقى وأشعر برطوبة تجتاح وجهى, وصلنا إلى بوابة فتحت، إننى أشتم هواء جديد هنا غير الهواء المخزن بالأسفل, يوجد بعض الأصوات وأشعر بحرارة أدفئ تلامس شعرى, إننى فى قمة الفرحة ولكن لحظة ربما سيتم اقتيادى إلى مكان آخر معتقل جديد, سوف يغمى على من الحيرة والتفكير.

خلع العصبة عن عينى، إننا حقا فى الخارج هذه الأرضية رأيتها قبلا عندما أحضرونى هنا إلى المعتقل أول مرة, يا إلهى ماذا يحدث، ؟

العنصر الذى على الباب: مد إيدك ولا؟

مددت يدى يقوم بالختم عليها لأننى خرجت حديثا من المعتقل, يقتادوننى نحو الباب, يدفعنى بقوة خارجا انقلع يلا وإذا بيطلع عليك شى منجيبك لو كنت بسابع سما.

نظرت حولى أنا حقا فى الخارج, يوجد شمس وسماء لا يزال هناك حياة على هذه الأرض هواء نظيف يوجد بشر يمشون دون عصابات على أعينهم.

تمنيت أن أعانق كل شئ أمامى البشر والحجر وأن أقبل شجرة. أنظر لجسدى وهو متورم, جرح قدمى شفى تقريبا ولكن بطريقة عفنة.

أنا فى حلم ربما, ولكننى فى الخارج.

فى هذه اللحظة كان تشتت الأفكار والمشاعر وسرعة دقات القلب وعبيثة كبيرة تأكلنى, أين أنا؟! ماذا حدث؟! ألم أعد رقما؟! هل عدت باسم ولقب وحياة؟!

كيف أخرجونى من قوقعتى التى فى الداخل؟ أنا لم أودع أحدا فى الداخل؟ لن أعرف مصيرهم، كما لن يعرفوا مصيرى؟ هل كل الذين أخرجوهم من الزنزانة ولم يعدوا أخرجوهم بهذه البساطة؟

رغبتى فى البكاء على الأرض فاقت كل شئ, لم أكن أتوقع أن لحظة خروجى ستكون بهذا الضياع.

شعور لا يمكن لى وصفه ولا كتابته, هو يعاش فقط, يسرى فى شرايينك حتى وصف الشعور الذى كان مستحيلا.

لا أريد أن أكمل لك بقية قصتى، كيف عدت لمنزلى واستقبال أمى وأبى وأخوتى كيف استغربوا شكلى و وضعى كيف عرفت كم أمضيت فى الداخل ولحظة معرفتى للتاريخ والوقت كيف كانت لأن ذلك المكان لا وقت فيه،

لاحياة, لن أكمل لك لأن غيرى سيكمل لك قصتى التى حصلت معه فى مكان آخر، يشبه هذا المكان كثيرا وعاش نفس التجربة هذه, سنكمل بعضنا بعضا أحدنا يروى عن الآخر تفاصيل دقيقة جدا، ربما لن تهتم أنت لها فى حياتك، ولكن مجموع هذه التفاصيل يشكل حياة.

حتى تعلم كيف خرجت, أحد الذين خرجوا قبلى أعلم أهلى بمكانى ودفعوا مبالغ كبيرة جدا من المال للمحقق لكى لا يقوم بإدانتى بأى فعل ويتم إخلاء سبيلى حيا بالطبع.

ورد الياسين

obeikan.com